الأدب عند الرومانطيقيين العربيين

د. منصور أمين.ك
أستاذ مساعد، كلية يم.يي.يس ممباد(الحكم الذاتي)

التمهيد

الرومانطيقية ثورة اجتماعية وسياسية وأدبية ضد الكنيسة ونظام الملكي ثابت الدعائم. وظهرت الرومانطيقية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في فرنسا، ثم فشت إلى الإنجلترى والأسبانيا وألمانيا وإلى سائر البلاد الأوربية، وفي هذا الاتجاه كان الأدب الرومانطيقي أدبا ثائرا تهتم بمصالح الفرد وينتصر له ضد مظالم المجتمع، والتحدث عن المشاعر والعواطف الفردية، والتعبير عن الآمال العامة. والرومانطيقية يهتم بالنفس الإنسانية وما تزخر به من عواطف ومشاعر مع فصل الأدب عن الأخلاق ولذلك يتصف هذا التيار بالسهولة في التعبير والتفكير وإطلاق النفس على سجيتها والاستجابة لأهوائها، وهي مذهب متحرر من قيود العقل والواقعية وإنها تميل إلى التجديد.

نشأت الرومانطيقية في الأدب العربي في طرائق مهمة ومنها حملة نابليون أرض مصر، وعلاقة أهل لبنان بالفرنسة، ورحلة الأدباء من لبنان وسوريا إلى أمريكا الجنوبية والشمالية. وتضيء هذه المقالة الخصائص الهامة التي امسك بها الرومانطيقيين العربيين.

المقارنة بين الرومانطيقية الأوربية والعربية

وقبل أن يعمق إلى هذا البحث لا بد علينا أن يناقش عن العلاقة بين الرومانطيقية الغربية والعربية.إن الأدب العربي الحديث قد تأثر كثيرا بالآداب الغربية تأثرا عميقا، قد فاق تأثره بأي أدب وفي أي زمان سبق، وذلك منذ أن أخذ العرب يتصلون بالعالم الغربي.[1] واستقر

النقاد على الرأي أن بداية الرومانطيقية في الأدب العربي باحتكاك العرب مع أوربا، ولكن هذا الاحتكاك الأوربي العربي لم يحرز وفاقا، وتساويا مائة بالمائة، بل بينهما فرق واضح، ويبرز هذا الاختلاف بعد ما يقارن بينهما مقارنة فنية، ويقول الدكتور علي عباس علوان:»إن مقارنة الانجازات الكبرى للرومانطيقية الأوربية وخطوطها العامة سواء في النظرية الشعرية أم في تجديد بنية القصيدة ونسيجها، أم في هذه الحركة التي أثارتها في تاريخ الفن الإنساني، وما دار حولها من نظريات واستحداثات، وهذه الصورة التي نجدها تختلف كثيرا جدا عن صورة الموجة الرومانطيقية التي شاعت في بعض الأقطار العربية منذ مطلع القرن، ثم اتسعت بسرعة حتى الحرب الكونية الثانية.» [٢]

وقد بقي هذا الاتجاه في الشعر العربي مملوء بسماته العامة من أحزان الشعراء وشكواهم وتمردهم أحيانا، وأشواقهم للطبيعة، وتغيير الأوزان في القصيدة، والحنين إلى أيام الطفولة وبرائتها، والحيرة والشك والتردد، هذه الظواهر العاطفية والسمات الشكلية والموضوعية التي نجدها عند شعراء العرب المحدثين لهذه الفترة، قلما اجتمع جميع هذه الصفات في شاعر واحد أو جماعة واحدة ولا شك أن هذه السمات والظواهر تلتقي في خطوطها النوعية العامة بالسمات الأساسية لتلك الرومانطيقية الأوربية، ولكنها تختلف عنها في الدراسة اختلافا كبيرا، وهي درجة عمق هذه الأحاسيس، وتلك العواطف والمنازع والسمات.

والحقيقة أن الرومانطيقية العربية لم تحرز تقدما هائلا من التجديد وأحداث الانعطاف الكبرى في البنية الفكرية والثقافية والفنية على ساحة الشعر العربي. والسبب الرئيسي الأول وراء هذا الخلاف بين صورة الرومانطيقية الأوربية، وبين موجة الرومانطيقية العربية، هو الجانب السياسي والاجتماعي اللذان يتمثلان في الاختلاف ما بين نشأة البرجووازية العربية وحركتها ونشاطها. والسبب الثاني هو غياب الفنان العظيم ذي القدرات الهائلة والإمكانات المعددة. [٣]

وخصائص الرومانطيقية الأوربية الهامة:

١. الاهتمام بالعاطفة وبالأعمال الشعرية.

٢. الاهتمام بالفرد ورغباته.

٣. الميل إلى الشعر الغنائي.

٤. مناجاة الطبيعة ومعاملتها أنها كائن حي يشارك الشعراء مشاعرهم.

٥. تتصف بالشكوى والحزن والألم.

٦. يعتمد على الخيال والتصوير في التعبير عن الأفكار.

٧. تحاول الإبداع والتجديد في أسلوب الشعر وأعراضه.

٨. لا تحفل بالقواعد اللغوية الموروثة، بل تهتم بالتعبير عن المعنى، وقد ظهرت الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث.

وخصائص رومانطيقية الأدب العربي الحديث الهامة :

١. الخيال المجنح المحلق.

٢. تكرار الألفاظ والاهتمام بالتغبير عن المعنى.

٣. جعل أحزان الفرد وأحلامه محور الحديث والتركيز عليه.

٤. التفاعل مع الطبيعة.

٥. الإنصراف إلى الطبيعة.

٦. التعبير عن تجربة ذاتية وعدم تكلف الألفاظ وتصنعها.[٤]

ويرى مشابهات كثيرة بين هاتين نزعتين، ويبحث هنا بعض خصائص الرومانطيقية التي أطلق بها الأدباء من العرب. منها:

الثورة على القديم وأنصاره

يكتشف في يسر في النصوص النظرية التي كتبها الرومانطيقيون العرب ثاروا على ما كان شائعا في أيامهم لإرساء مذهبهم النظري الجديد. وميخائيل نعيمة يعبر عن ذلك منذ سنة ١٩١٣م قبل أن يصبح المنظر الأول لجماعة المهجر فيقول في كتابه 'جبران خليل جبران': «

قرأت الرواية [٥] فالستفزتني كتابة مقال فيها دعوته 'فجر الأمل بعد ليل اليأس' وأرسلت به إلى ' الفنون' وهو أول مقال نقدي حبرته، فكان فاتحة حياتي الأدبية وقد نددت فيه تنديدا مرا بجمود اللغة العربية في خلال عصور طويلة..» [٦]

وقبل تأسيس الرابطة القلمية، هب الكاتب والفيلسوف المهجري أمين الريحاني مطالبا إلى الشعراء بنبذ موضوعات الشعر التقليدي وعدم السير في رقاب الأقدمين من ابتداء القصائد بالبكاء على الأطلال وتذكر الأحبة ممن غادروا الديار. ويقول في إحدى وصاياه: « حرروا صناعتكم من قفا نبك وسائق الأظعان إن عندكم اليوم الطيارات لتسوقوا النجوم.» [٧]

والعقاد والمازني يقدمان لكتاب 'الديوان' بقولهما: « وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل وقضى أن تحطم كل عقيدة أصناما عبدت قبلها، ولهذا اخترنا أن نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادئ الحديثة ووقفنا الأجزاء الأولى على هذا الغرض.» [٨]

وبالجمل تطالب الرومانطيقية بالتحرر من القواعد والتقاليد وتأكد أهمية التلقائية والغنائية، ذلك لأن الرومانطيقية تقدمية تنظر إلى المستقبل ولا تحترم قدسية الأدب القديم لأنها تحترم ذاتية الفرد. [٩]

رفض القديم في شكله

ويعتقد الرومانطيقيون أن يرفض الأدب شكله القديم الذي يعانق القدماء. ولعل أكثر الرومانطيقيين نقمة على أنصار الجمود اللغوي والتقليد البلاغي، وميخائيل نعيمة وهو أحد من المجددين يسخر في'نقيق الضفادع' : « في الأدب العربي اليوم فكرتان تتصارعان، فكرة تحصر غاية الأدب في اللغة وفكرة تحصر غاية اللغة في الأدب..فذوو الفكرة الأولى لايرون للأدب من قصد إلا أن يكون معرضا لغويا يعرضون فيه على القارئ كل ما وعوه من صرف اللغة ونحوها وبيانها وعروضها وقواعدها» [١٠]. ويتجلى رفض الرومانطيقيين للشكل الأدبي القديم في مستوى وحدة القصيدة الشعرية وعلاقة أبياتها بعضها ببعض. فهم يعيبون على قصائد مقلدي القدامي أنها لا تمثل من حيث التركيب بناء فنيا متماسكا تماسكا عضويا، وقد سخر العقاد من التصور التقليدي لهيكل القصيدة بقوله: «ولكنني مكتف بأن أقول إنني

كنت اختار موضوعات قصائدي ولست أحسب في اختيارها وسياغتها حسبا للذين يأخذون الشعر بيتا بيتا ثم لا يفرقون بين الأبيات التي توضع في قصيدة واحدة والأبيات التي توضع في قصائد شتى بغير الاتفاق في الوزن والقافية.» [١١]

وإن أول ما تجدرالإشارة إلى شكل الأدب في مجال الحديث عن نظرية الروماطيقيين العرب لمشكلية الصياغة الأدبية، هو أنهم قد تناولوا بادئ ذي بدء مادة الأدب وهي اللغة، كقول نعيمة في 'الغربال': «إن لمفردات اللغة التي نصوغ منها منثوراتنا ومنظوماتنا صفات عجيبة وميزات غريبة، فلكل كلمة معنى أو روح..» [١٢]، ولكنهم أحسوا بالفرق بين اللغة ذات الوجود القاموسي والكلام الأدبي الذي هو استعمال خاص لها.

ولئن ثار الرومانطيقيون العرب على التصور التقليدي للتعامل مع اللغة، وذلك التصور الذي يقوم على محاكات القدامي على كلامهم وترديد ألفاظهم، وأنهم قدموا البديل لذلك. والبديل فيما يرون إنما هو تطوير اللغة وربط الكلام الأدبي واللغة عامة بالحياة وجعلهما مواكبين لها، على نحو ما أشار جبران إلى ذلك بقوله: «أغني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلا عن المحراث الذي ورثه عن أبيه فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد..» [١٣] ، وهنا أن جبران يعتقد أن اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمة، أو ذاتها العامة، فإذا نامت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها، وإذا كان أنصار القديم من المقلدين يرون أن الإنشاء الأدبي قيمته في المجاراة القدامى في استعمال غريب اللغة، فإن الرومانطيقيين العرب قدموا مفهوما جديدا للفصاحة.

رفض القديم في مضمونه

تستمد مضمون الإبداعيات الكلاسيكية من الطبقة في المدينة وحياتهم الاجتماعية وتستمد الإبداعيات الرومانطيقية من الفرد ومشاعره ومن الطبيعة. [١٤] وإن رفض الرومانطيقيين القديم في شكله لا يقل حدة عن رفضهم لمضمونه، فكثيرا ما ثاروا على المواضيع والأفكار التي كان المقلدون يتخدون منها مادة لأدبهم، وقد اغتنم العقاد مثلا فرصة تقديمه للديوان الثاني الذي أصدره عبد الرحمن شكري للتنديد بالمضامين القديمة فقال :» ليس للشعر التقليدي فائدة قط وقل أن يتجاوز أثره القرطاس الذي يكتب فيه أو المنبر الذي يلقي عليه « [١٥] ويتردد صدى الثورة على المضامين التقليدية بصفة مباشرة أو غير مباشرة

عند كافة الرورمنطيقين العرب.

وعند الرومانطيقيين رؤية خاصة في مضمون الأدب، يقول عبد الرحمن شكري : «فينبغي للشاعر أن يتعرض لما يهيج فيه من العواطف والمعاني الشعرية وأن يعيش عيشة شعرية موسقية بقدر استطاعته، وينبعي له أن يعود نفسه على البحث في كل عاطفة من عواطف قلبه وكل دافع من دوافع نفسه، لأن قلب الشاعر مرآة الكون، فيه يبصر كل عاطفة جلية وشريفة، وفاضلة أو قبيحة مرذولة وضيعة» [١٦]

ومن آراء الرومانطيقيين تصويرالظواهر الاجتماعية واجب عليهم، وعلى نحو ما أثبته العقاد في تقديمه الجزء الثاني من ديوان صديقه شكري إذ قال: «فالشعر لا تنحصر مزيته في الفكاهة العاجلة والترفيه عن الخاطر ولا في تهذيب الأخلاق وتلطيف الاحساسيات، ولكنه يعين الأمة أيضا في حياتها المادية والسياسية، وإن لم ترد فيه كلمة من الاقتصاد والاجتماع. فإنما هو كيف كانت موضوعاته وأبوابه مظهر من مظاهر الشعور النفساني، ولن تذهب حركة في النفس بغير أثر ظاهر في العالم الخارجي». [١٧] ومع ذلك فالأمانة العلمية تقتضي بأن نعترف بوجود بعض النصوص التي دعا فيها الرومانطيقيون العرب صراحة إلى أن يكون الأدب معبرا عما يدور في المجتمع وعما يجد فيه. وميخائيل نعيمة يقول مثلا في 'الغربال' : « لكننا نعتقد في الوقت نفسه أن الشاعر لا يجب أن يطبق عينيه ويصم أذنيه عن حاجات الحياة وينظم ما توجه إليه نفسه فقد سواء كان لخير العالم أو لويله. لذاك يقال إن الشاعر ابن زمانه وذاك صحيح في أكثر الأحوال إن لم يكن في كلها.» [١٨]

والخلاصة من هذا كله، أن مضمون الأدب في النظرية الرومانطيقية يتصف أولا بالإنسانية، لأنه يهتم بالنفس البشرية ويسير أغوارها ويغوص فيها باعتبارها واحدة على امتداد العصور وتباعد الأمكنة.

الدعوة إلى التجديد

إن رفض الرومانطيقيين العرب نظرية الأدب التقليدية جعلهم بصفة منطقية يقترحون التجديد حلا بديلا، وقد جاء التعبير عن ضرورة التجديد في كتابات الرومانطيقيين مصاحبا لثورتهم على القديم التقليدي وعلى أنصاره. ويقول الشابي متحدثا عن الأدب العربي في

عصره: « والحق أنه قد أصبح من العسير جدا على الأديب العربي المعاصر أن يعصم نفسه من التأثر بالروح الأجنبية، فهو لا بد أن يتأثر بهذا الروح ولو تأثرا لا شعوريا.» [١٩]

وعلى هذا النحو اكتشف الرومانطيقيون العرب أن الطريق الفاضل إلى التجديد ينبغي أن توصلهم إلى آداب الحضارات الأجنبية وإلى فكرها وفنها ويدعون إلى ذلك صراحة وجهرا. و يقول ميخائيل نعيمة في 'الغربال' في عنوان ' فلنترجم' أحسن مثال على دعوة الرومانطيقيين إلى ضرورة الانفتاح على الآداب الأجنبية، فيقول: « نحن في دور من رقينا الأدبي والاجتماعي تنبهت فيه حاجات روحية كثيرة لم نكن نشعر بها من قبل احتكاكنا الحديث بالغرب، وليس عندنا من الأقلام والأدمنة ما يفي بسد هذه الحاجات، فلنترجم.» [٢٠] وهكذا يحث الرومانطيقيون إلى تجديد الأدب واكتشفوا الطريق إلى ذلك التجديد فانعكس كل ذلك على تصورهسم ماهية الأدب وشكله ومضمونه ووظيفته.

وظيفة الأديب

وإذا كان الأدب تصويرا لخلجات النفس وتطلعاتها، فإن وظيفة الأديب يتمثل في «أنه أبدا يشاطر العالم اكتشافاته في عوالم نفسه». وإذا كان الأدب تساؤلا عن حقيقة الموجودات فإن مهمة الأديب هي' في الإبانة عن الصلات التي تربط أعضاء الوجود ومظاهره'. وقد عبر الشابي عن ذلك في إحدى رسائله قائلا : « إن الفنان يا صديقي لا ينبغي أن يصغي لغير ذلك الصوت القوي العميق الداوي في أعماق قلبه – أما إذا أصغى إلى الناس وما يقولون وسار في هذه الدنيا بأقدامهم. فقد كفر بالفن وخان رسالة الحياة». [٢١] وبالجملة الأدب عند الكلاسيكيين محاكات الآداب القديمة وعند الرومانطيقيين خلق وإبداع. [٢٢]

الهـــــوامـــــش

١. الرائد، لكنو، الهند،العدد :٨،أكتوبر٢٠١٤، ص-١١.

٢. البعث الإسلامي، مجلة إسلامية شهرية جامعة -المجلد -٤٥، العدد العاشر، جمادي الثانية ١٤٢١هجرية ، ص -٧٩.

٣. نفس المرجع، ص -٨٣.

٤. عماد علي سليم الخطيب، في الأدب الحديث ونقده، الطبعة الأولى-١٤٣٠هـ، ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة،ص -٢٤٠.

٥. يعني رواية ' الأجنحة المتكسرة' لجبران خليل جبران.

٦. القرقوري، فؤاد ، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ٩٦.

٧. نادرة جميل سراج، شعراء رابطة القلمية، دار المعارف بمصر، ص-١١٧.

٨. القرقوري، فؤاد ، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ٩٦.

٩ ١٨٥٠- ١٩٦٧، المطبة الوطنية – بنغازمي، ص- ٣٩٤.

١٠. القرقوري ، فؤاد ، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ١٠٧.

١١. القرقوري ، فؤاد ، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ١٠٨.

١٢. نفس المرجع ، ص- ١٠٨.

١٣. نفس المرجع، ص- ١٠٩.

١٤. الخطيب، عماد علي سليم ، في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ص- ٢٤١.

١٥. القرقوري ، فؤاد، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ٩٩.

١٦. نفس المرجع ، ص- ١٠٤.

١٧. القرقوري ،فؤاد،أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون ، ص- ١٠٥.

١٨. نفس المرجع ، ص- ١٠٦.

١٩. القرقوري ، فؤاد ، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون ، ص- ١٠٠.

٢٠. نفس المرجع، ص- ١٠١.

٢١. القرقوري،فؤاد، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون ، ص- ١١٤.

٢٢. الخطيب، عماد علي سليم ، في الأدب الحديث ونقده،دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة،ص- ٢٤١.

ثبت المراجـــــع

- القرقوري، فؤاد، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها.
- الخطيب،عماد علي سليم،في الأدب الحديث ونقده،دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.
- دعبيس، صعد ، الغزل في الشعر العربي الحديث في مصر من سنة ١٨٥٠- ١٩٦٧.
- نادرة جميل سراج، شعراء رابطة القلمية، دار المعارف بمصر.
- عماد علي سليم الخطيب، في الأدب الحديث ونقده، الطبعة الأولى-١٤٣٠هـ، ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة،
- البعث الإسلامي، مجلة إسلامية شهرية جامعة -المجلد -٤٥، العدد العاشر، جمادي الثانية ١٤٢١هجرية.
- الرائد، لكنو، الهند،العدد :٨،أكتوبر ٢٠١٤.